ظهورالأنواع النثرية الشنقيطية ومستوياتها اللغوية

محمدن سيد أحمد
طالب دكتوراه: مكونة اللغة العربية
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة نواكشوط

اللغة بما هي نشاط إنساني تعكس اختلاف الوجود البشري وتباين المستويات الاجتماعية والدرس الأدبي والنقد منه على وجه الخصوص مطالب بتناول اللغة في مختلف مراحل إنتاجها وفي بنياتها المتعددة وأغراضها ووظائفها، وإذا كانت النثرية تقوم على تطويع اللغة الفصيحة أو هي كما يعرفها أستاذنا الدكتور محمد الأمين ولد مولاي إبراهيم "فعل الكتابة الحاصل بتطويع النثر العربي الفصيح لغرض كتابي إبداعي وفق شروط الإبانة العربية"[1].

فإن الفعل الإنجازي لهذه النثرية قد يحمل سمة أدبية أو بلاغية وقد يكون خلوا منهما بل إن التدرج الذي يأخذه المسار اللغوي يقتضي أن تبدأ هذه النثرية في مستوى التواصل العادي المجرد من النفعية أو الجمالية وهذه المرحلة البدائية من وجود اللغة والممارسة اللغوية لا يمكن إهمالها أو تجاوزها وإن كنا نجد من بين الدارسين من يعتبرها خارجة عن الدرس الأدبي ولا يعيرها أي اهتمام فطه حسين يصرح بأن "الأحاديث العادية ولغة التخاطب وهذه العبارات التي يتبادلها الناس لا تعنينا في درس الأدب إذ أن قيمتها لا تظهر إلا حينما يكون لها حظ خاص من جمال أو لذة فنية خاصة"[2].

وهو موقف متأثر بعض الشيء بالدرس النقدي الذي يرى في النوع الشعري كفايته وإن كنا أيضا نرى أن دراسة الشعر لا تستغني عن هذا الجانب إذ أن الإمكانيات اللغوية ولغة التداول اليومي هي التي تتيح تصنيف شاعرية هذا القول أو أدبية ذاك وقديما قيل "الأشياء تعرف بأضدادها" فبدون لغة تواصلية عادية يصعب التفطن للغة أدبية أو جمالية.

إن نشأة النثر ومثلها أيضا نشأة الشعر– على اعتبار أن الأشعار لا تظهر إلا من خلال انتشار نثرية معينة– لا تستغني عن دراسة اللغة في مستويات تطويعها الأولى ومع ذلك لابد من الاعتراف بصعوبة إن لم نقل استحالة الوقوف على البدايات الأولى لهذه الاستخدامات اللغوية البسيطة والعادية نظرا لعدة عوامل سنذكرها في محلها.

ونحن لا نستطيع تجاوز هذا المستوى من التطويع على سبيل الإعراض كما يقرر طه حسين ولكننا قد نضطر لتجاوزه في أول مراحله على التعذر أو الاستحالة ومع ذلك فإن ما هو موجود في خانة

---

1 2. محمد الأمين ولد مولاي إبراهيم، القراءة وتأسيس القراءة، مرجع سابق، ص:

1 6 2. طه حسين، من حديث الشعر والنثر، مرجع سابق، ص:

التواصل وإن لم يكن يمثل البدايات الأولى إلا أنه يعكس مدى استمرار هذا الإنجاز اللغوي على مستوى التواصل ويعطي صورة عن البدايات الأولى التي يفترض أنها لم تعد موجودة.

أولا : تطويع اللغة في مستوى التواصل: لا نبالغ إذا قلنا إن اللغة هي بداية البدايات، والبداية اللغوية مثل جميع البدايات في التدرج والنمو والتفاوت ومع مرور الوقت تبدأ في التصاعد والتطور وتضيف إمكانات جديدة وتوسع من نطاق إبدالاتها وقدراتها الذهنية والعقلية من التجريد والتجزئة والتفكيك والتخيل والتفسير والدرس اللغوي بالمجمل يفشل في الوصول إلى البدايات اليقينية وكل ما هو موجود في هذا الصدد محض افتراضات وتصورات وحدوس، والسؤال الذي سيقفز إلى الأذهان:هل بدأت اللغة تواصلا أم العكس؟

والجواب على هذا السؤال ليس بذلك القدر من الحسم ولكن أغلب اللسانيين يرى أن اللغة بدأت تواصلية ثم أخذت شيئا فشيئا تتجه نحو الأدبية وهنا أيضا يطرح السؤال: أيهما أسبق الكلام أم الكتابة؟

فالدكتور محمد العبد يجيب عن هذا السؤال على سبيل البداهة يقول "بديهي أن الكلام قد سبق الكتابة"[1] وهذا يعني أن تطويع اللغة يبدأ في مستوى الشفاهة فيتم التخاطب والحديث عن الحاجات والمستلزمات والتواصل المستمر الذي يقتضيه الاجتماع الإنساني وهذا التخاطب في مستوى الشفاهة يستمر إلى غاية وجود الكتابة، مع أن الكتابة نفسها لم توجد لتغني عن التخاطب الشفاهي وإنما من أجل طي المسافات وقهر الظروف ونقل التجارب والخبرات والاستفادة من الزمن ومحاولة التغلب على النسيان؛ هي كلها دوافع ساهمت في ظهور الكتابة عند المجتمعات البشرية.

وقد شكل ظهور الكتابة حدثا خارقا عند هذه المجتمعات حتى أصبحت المكتوبات تختص بمكانة رفيعة عن المنطوقات ولذلك أصبحت النصوص تتوقف على ما هو مكتوب وحين نتحدث عن النص "فإننا نفترض عادة وجود اللانص" واللا نص هو ضرب من القول الشفاهي لا يتجاوز مرحلة التخاطب والتواصل ويمحي ويموت بمجرد أن يصل وتدخل في ذلك الكتابات التي لا تقصد إلى التوثيق أو التعالي على الزمن.

إن اللغة في المستويات التواصلية الأولى قبل ظهور الكتابة مصيرها الضياع وتموت بمجرد أن تقال ولا تبعث أي اهتمام وحين وجدت الكتابة انصرفت إلى توثيق العقود والمعاملات وتدوين الحوادث والمناسبات وتجاهلت هذا المستوى من التخاطب رغم أن هذه المجالات في كثير أحيان لا تتجاوز المستوى التواصلي الأول.

---

[1]. د. محمد العبد اللغة المكتوبة واللغة المنطوقة بحث في النظرية، ط1، دار الفكر، ص:28

والكتابة الأولى كانت عبارة عن عملية تدوين للنصوص التي احتفظت بها الذاكرة واختزنتها لفترة، وهذه النصوص إنما احتفظت بها لتميزها عن الأحاديث اليومية ولاشتمالها على سمة أو سمات بلاغية أو إبداعية لكن هذا الاهتمام بالمنحى الجمالي لا يبرر التجاوز المستمر للغة في مراحلها التعبيرية الأولى الذي ينتهجه بعض الدراسين كما نجد عند طه حسين عندما يقول: "الذي يدرس تاريخ الأدب إنما يعنى بالكلام عندما يتجاوز هذا النحو من الحديث العادي وأداء الحاجات العاجلة إلى التفكير من جهة والجمال من جهة أخرى"[1].

فالنثرية إنما تتأتى من وجه اطراد هذه الاستخدامات التواصلية للغة وبالتالي تمثل طورا مهما من أطوار الرقي التعبيري ويقترح عدد من المهتمين ودارسي الأدب وخاصة أصحاب الخطاب الروائي دراسة مختلف الاستخدامات اللغوية وعدم الاقتصار على الجانب الإبداعي فهذا باختين يعترف بأن "اللغة الأدبية ليست إلا إحدى لغات التنوع الكلامي"[2].

ونجد كذلك عبدالفتاحكيليطو يقرر بأن "ليس هناك مبرر لإعطاء الأولوية للخطاب الأدبي على حساب الخطابات الأخرى"[3].

وهي كلها دعوات لها ما يبررها في هذا الجانب إذ التركيز على الخطاب الأدبي وإهمال الخطابات اللغوية الأخرى يحدث فراغا فبعض هذه الخطابات يتداخل مع بعض وتنبثق منه أنواع جديدة فهي تتحاور باستمرار ولا يمكن تحديد بعضها إلا من خلال سمات خطاب آخر.

إن معضلة أخرى تطرح إشكالا وهي ما إذا كانت اللغة تعرف هذا المستوى من الجمود؟

ومع أننا قد نسلم بهذا الأمر إلى حين بناء على وجود نصوص لا ترمي إلى التأثير أو اللذة غير أن أصحاب كتاب "الاستعارات التي نحيا بها" ينطلقون من مبدأ استحالة الحياة اللغوية بدون استخدام الاستعارة لكننا نجد من الباحثين من يرى أن الوظيفة الأصلية للغة ليست في إثارة الجمال وإنما الغاية من اللغة هي "الاتصال بالآخرين"[4].

. طه حسين، مرجع سابق، ص: 26[2]

[2] مختارات من أعمال باختين، ترجمة يوسف، الحلاق، تقديم، بطرس الحلاق، إشراف، جابر عصفور، المركز القومي للترجمة، ص:8

. عبدالفتاحكيليطو، دراسات بنيوية في الأدب العربي، دار توبقال، ط3، 2006، ص:24[4]

. جان بول سارتر، ما الأدب؟ ترجمة وتقديم محمد غنيمي هلال، نهضة مصر للطباعة، ص:20[5]

وفي كتاب "الكتابة في مستوى الصفر" نجد رولان بارت يقرر أن "تناسق اللغة هو علائقي أي أن الكلمات تتضاءل إلى أقصى مدى لتبرز الروابط اللغوية وليس فيها كلمة كثيفة بذاتها فالكلمة لا تكاد تكون علامة على شيء"[1].

وإذا كان هذا يحدث في لغة الكتابة فإن لغة الكلام بطبيعتها أقل كثافة وأدعى للجمود وألصق بالصفر يقول الدكتور محمد العبد "إن أقل الناس ثقافة يشعرون بمجرد وضع أيديهم على القلم بأنهم يستعملون لغة خاصة غير اللغة المتكلمة"[2].

فخيارات الكتابة وما تتيحه من إمكانية الشطب والتبديل والحذف قد تتضاءل لتصبح في مستوى الصفر فتنعدم فيها كل بواعث الجمال والمتعة وتعبر عن الأفكار بطريقة أسهل وفي متناول عموم القراء داخل اللغة هذا يعني أن الكلام قد يجف لدرجة التخاطب الميت فلا تكاد الكلمة تعرف حياتها السابقة ويصبح الكلام بذلك كما من النصوص الميتة "اللا نصوص".

إن هذه النثريات الميتة في الثقافة الشنقيطية وجدت في أطوار التعريب الأولى بعد مجيء الإسلام إلى أن جاءت لحظة الكتابة والتدوين وهي لحظة وثيقة الارتباط بانتشار تعاليم الدين الإسلامي وازدهار النشاطات التجارية لتنشأ بذلك نثرية تواصلية أصبحت توصف بالحياة لأنها دونت وكتبت واستخدمت في البيوع والعقود والتوثيق والوصايا وغير ذلك من أنماط الخطابات.

لقد كانت الوصية من أقدم الأنماط النثرية التي استخدمت في مستويات التواصل ولعل وصايا الفاتحين المسلمين من أقدم النثريات التي بقيت حية ولم تتجاوز المستوى التواصلي فوصية كل من عقبة بن نافع الفهري وإمام المرابطين عبدالله بن ياسين احتفظت بهما كتب التاريخ التي كتبت عن المغرب الإسلامي بشكل عام ويرجع الاهتمام بهاتين الوصيتين إلى البحث والتقصي التاريخي الذي يتتبع هذين الفاتحين وتم التعامل معهما بناء على مكانة من صدرتا عنه وليس من خلال مكانتيهما اللغويتين، لقد عبرت الوصتان عن مستوى التطويع الذي وصلت إليه اللغة في هذه البلاد وأنها قد تجاوزت مراحل الترويض الأولى فقد أصبحت لغة تواصل وتخاطب وتعبر وصية عبد الله بن ياسين بالضبط عن امتلاك أهل الصحراء من خلال جيشه للغة فصيحة تطبيقا وقراءة وإلا ما كان أوصى بلغة فصيحة، لقد كان ابن ياسين المعلم الأول في الصحراء وقد أدخل اللسان العربي إلى الصحراء مثلما أدخل الدين الإسلامي ولا نستبعد أن يكون رباطه أيضا هو منشأ المؤسسة اللغوية الأولى"المحظرة" فقد قدم أنموذجا لم يك معهودا من المرابطة والانتظام في حلق لتدريس العلوم الشرعية

---

[2] . رولان بارت، الكتابة في درجة الصفر، ترجمة محمد نديم خشفة، ط2002،1، ص:59

[1] . محمد العبد، مرجع سابق، ص: 28

واللغوية ويستشف من وصاته أنه قد اطمأن إلى أن المشروع اللغوي قد بدأ يستوي على الأقل في المستوى الأول فالناس بدؤوا يفهمون العربية ويمارسون أنشطتهم الحياتية بهذا اللسان ولا نجد في المصادر التاريخية ذكرا للغة أخرى غير العربية كتبت بها وصية ابن ياسين وعلى افتراض أن ابن ياسين كان يتقن اللغات الصنهاجية أو يستعملها في الخطاب لكن من المؤكد أن التعاليم الإسلامية تجذب الناس إلى العربية وتكبرها في عيونهم وتشدهم إليها شدا وبالتالي لن يمضي وقت يسير حتى يصبح اللسان العربي هو اللسان الثقافي للصحراء فقد باتت الوصايا تكتب به ومن الراجح أيضا أن العقود والمعاملات تنحصر فيه نظرا لضعف النشاط الكتابي للغة البربرية التي لا تتوفر على ما تتوفر عليه اللغة العربية من أساسيات الكتابة وقد حدثنا الأستاذ الباحث يعقوب ولد اليدالي أن اللغة البربرية كانت تستخدم الكتابة ولكن ممارستها للنشاط الكتابي في بلاد شنقيظ ظل باهتا إلى أقصى حد وكل ما هو موجود من كتابة لا يمكنه الصمود أمام المد اللغوي العربي.

لقد انتقلت هذه البلاد إذن في وقت وجيز من استخدام اللغات البربرية في النشاط العلمي والثقافي والديني إلى اللغة العربية بفضل رباط ابن ياسين الذي قدم أول أنموذج للمؤسسة الثقافية والدينية وستتابع النماذج مع جيل العلماء المؤسسين الذين جذبهم النظام السياسي في الصحراء.

لقد كان لقدوم هؤلاء بالغ الأثر في نشر العلوم الدينية واللغوية وتوطيد دعائم التعريب أمثال الإمام الحضرمي والشريف عبد المؤمن والحاج عثمان اللذان تتلمذا على القاضي عياض وقاما بتأسيس مدينتين علميتين في بلاد شنقيط هما مدينة وادان ومدينة تيشيت سنة 535هـ وإبراهيم الأموي الذي كان يفتي في مجلس أبي بكر بن عامر اللمتوني وقد ساهموا جميعا إلى جانب دور المرابطين في تأسيس المحظرة الشنقيطية.

إن أقدم وثيقة نثرية وجدت في هذه البلاد تعود لهذا العهد وهي كتاب "الإشارة في تدبير الإمارة" وبدون شك لا تدخل هذه النثرية في المستوى التواصلي الأول وإنما في النثر الفني البديع وهذا ما يقودنا إلى إشكال مهم فيما إذا كان هذا النثر يعتبر أصيلا في هذه البيئة التي وجد فيها أم أنه نثر وافد دخيل ولو كان قد كتب في هذه البلاد؟

فنجد من بين الباحثين أيضا من يعتقد أن المستوى المثالي "الإبداعي" للغة يسبق المستوى العادي فالدكتور عبد الحكيم راضي يرى أن الكلام العادي هو الصورة الثانية للممارسة اللغوية التي تتحقق بسبب المستوى المثالي (الإبداعي) وأن المستوى العادي المألوف ما هو إلا ركام أو من العوادم التي تركها الزمن[1]

---

[2]-عبد السلام محمد /جراد رشيد، دراسات في النقد العربي القديم، ص: 95

فالاستخدام اللغوي وفق رأي الدكتور راضي يبدأ إبداعيا وشيئا فشيئا يتخلص من إبداعيته حتى يصبح عاديا مألوفا وهو رأي نجده عند بعض النقاد العرب القدامى ففي كتاب الطراز ما نصه "إن المجاز إذا كثر استعماله صار حقيقة"[1] وهذا يعطينا تصورا أن اللغة تبدأ مجازية واستخداماتها في أول الأمر تبدو غريبة غير مألوفة ومع الوقت تسير في اتجاه الاعتياد وتنتفي غرابتها.

ونثرية الإشارة تبدو متعالية على اللغة التواصلية اليومية تمتاز بالنضارة والحسن وأسلوبها أسلوب مطرز براق وبالتالي لا تدخل في دائرة الاستخدام العادي للغة.

إذن كتاب المرادي هو أول نص نثري مكتوب عن هذه البلاد وهو يجسد بداية تأسيس الكتابة النثرية ويقدم أنموذجا سيستقر في أدبيات القول النثري وستعرف الكتابة بعده انحسارا لفترات طويلة فقد عرفت البلاد فترة صمت وثائقي بعد المرابطين ليس فقط في انعدام الوثائق التي تنسب لها فقط وإنما في الحضور داخل الكتابة التاريخية للمنطقة.

لكن من المؤكد أن الإسلام بقي هو دين البلاد والتعريب الذي أحدثته أيام الرباط بدأ في التوسع شيئا فشيئا في صفوف النخبة وقد اقتصر في هذا الوقت على نخبة القوم وخاصة من العلماء الذين تواصلت هجراتهم إلى هذه البلاد وتلامذتهم، وتمثل رسالة اللمتونيأنموذجا لنثر القرن التاسع الهجري بعد كسر هذا الصمت التاريخي، ويمكن القول بكثير من الاطمئنان إن نثرية رسالة اللمتوني نثرية متأصلة لا علاقة لها بالنثر الخارجي الوافد وهي نثرية لا تكاد تخرج عن المستوي التواصلي فهي نثرية علمية تقدم حقائق ومعلومات وتسرد أوصاف وتبعث بأسئلة وبالتالي تصف الواقع بدون محسنات بلاغية ولا تقصد إلى الإجادة والتنميق وإنما تسلك طريق التبسيط.

إن رسالة اللمتوني تعكس بوجه من الأوجه المرحلة التي وصل إليها الاهتمام بدراسة المتون الفقهية واللغوية ولكن التعريب الشامل لم يحدث وقتها وإنما هو حكر على المحيط النخبوي من طلاب الأجيال الأولى للمحظرة.

والتعريب حصل بشكل رسمي وشامل بعد قدوم قبائل بني معقل الذي شهدت بفضله البلاد "تحولا جذريا سببه استكمال تعريب القبائل التي كان بعضها يتحدث باللغة البربرية وتوسيع نطاق الدراسات اللغوية والنحوية"[2].

لقد شاع في هذا الوقت دراسة اللغة في مستواها الأول حيث أن دراسة اللغة تتوزع على مستويات وفقا لوظيفتها، واللغة في هذا المرحلة مقتصرة على الجانب التواصلي ولذلك نجد يحي بن حمزة

---

[2] . يحي بن حمزة العلوي، الطراز، صححه سيد بن علي المرصفي، ج1،مطيعة المقصم، مصر، ص:99- 100

[3] . د.محمد المختار ولد أباه، تاريخ النحو العربي، مرجع سابق، ص: 440

عندما يقسم علوم العربية يجعلها في مراتب خاصة حسب المستوى الوظيفي ففي المستوى العادي تتم دراسة النحو والصرف والمعجم[1] وهي الدراسات التي شاعت في هذه الفترة واطردت وأصبحت المحظرة تقرر متونا بعينها في هذه العلوم وتجسد عن ذلك تعريب أغلب مناطق البلاد وصارت العربية هي لغة العامة والخاصة وهي لغة التخاطب اليومي ولغة الكتابة والتدوين ولغة الفنون والآداب.

قد نقول إن تراكمات كبيرة يفترض أنها ضاعت في هذه الحقب ولكنها بكل تأكيد وجدت فانتشار الدراسات بهذه اللغة وحتى عملية قرض الشعر في ذلك الوقت تنذر بأن هناك نصوصا نثرية؛ إذ أن هذا المستوى من تعاطي العلوم والدرجة التي وصل إليها الشعر في ذلك الحين من الطبيعي أن يرافق ذلك تطويع فصيح للغة وقرض الشعر بالذات يجسد التقدم الذي وصلت إليه الكتابة النثرية فهي المهاد الأول لعملية قرض الشعر والنص الخلفي الأبرز المشكل للنصوص الشعرية.

إن أغلب النثريات التي تتمحض للتواصل هي في الغالب ترتبط بالمادة العلمية سواء كانت مادة تاريخية أو مادة فقهية أو مادة لغوية ويقترح أحد الباحثين رسم خط يرصد مدى انزياح الكلام تتوسطه درجة الصفر وموقع لغة العلم على هذا الخط "قرب الطرف الأدنى ولا ينعدم الانزياح فيها ولكنه يقرب من الصفر"[2].

ثانيا تطويع اللغة في المستوى البلاغي وتعدد المتون: درج البحث الأدبي على تقسيم لغة الخطاب إلى قسمين لغة مشتركة ولغة معيارية[3] فالأولى هي لغة التخاطب اليومي ولغة الحياة المشتركة بين المجموعة البشرية أما اللغة المعيارية فهي كما يعرفها بيجر: "اللغة التي تستخدمها الطبقات الاجتماعية العليا والمتوسطة"[4].

فاللغة المعيارية هي لغة النصوص ولغة الكتابة والفن هذا من وجهة نظر البحث السوسيولوجي أما البحث اللساني الوظيفي فإنه ينظر إلى اللغة من خلال وظيفتها ويقسمها تبعا لذلك إلى لغة أدبية ولغة عادية وعلى هذا النحو قسم الدرس اللغوي عند العرب الاستخدام اللغوي فيحي بن حمزة يفرق في دراسة علوم العربية بين مستويين لغويين المستوى العادي ويدخل فيه علم اللغة والتصريف والنحو أما المستوى الفني فهو بحسبه "تحقق علم الفصاحة والبلاغة وهو نظر خاص يأمن به الأديب من الخطأ في نظم الكلام وجزالة لفظه وحسن بلاغته"[5].

---

[2] . الطراز، مصدر سابق، ص: 180

[3] . دراسات في النقد العربي القديم، مرجع سابق، ص: 102

[4] . د.محمدالعبد، اللغة المكتوبة واللغة المنطوقة، بحث في النظرية،ط1، دار الفكر للدراسات،1990، ص: 45

[5] . نفس المرجع، ص: 45

[6] . يحي بن حمزه، مرجع سابق، ص: 180

وقد طغى هذا الرأي الذي يقسم الاستخدام اللغوي إلى مستويين على الدراسات قديما وسار على ذلك أصحاب العلم اللساني يقول الدكتور محمد العبد "من المعروف في علم اللغة الحديث أن الاستخدام اللغوي ينقسم إلى مستويين كبيرين المستوى العادي أو اللغة المعيارية والمستوى الفني أو اللغة الأدبية"[1].

وعلى هذا الأساس فإن الاستخدامات البلاغية تدخل في دائرة اللغة الأدبية وهنا يتساءل تودوروف والأمر موجه إلى البلاغة العربية هل اللغة المجازية هي ذاتها اللغة الشعرية؟ وما العلاقة بينهما؟

الشعريةوالتفريق بين النثرية البلاغية والنثرية الأدبية: يفرق تودروف في تحليله للنثر اللغوي بين اللغة المجازية واللغة الأدبية أو الشعرية على اعتبار أن الأولى تنحو إلى تحقيق ما يطلق عليه الخطاب الأجوف أي ذلك الذي يجذب الانتباه إلى الرسالة في حد ذاتها بينما تنحو الثانية إلى أن تحضر لنا الأشياء نفسها طبقا لوظيفة المحاكاة والخطاب بعد تأويلها ومع ذلك فإن كلتا اللغتين تصارعان عدوا مشتركا هو ما يسميه "الخطاب الشفاف" أي الذي يفرض التصور المجرد[2].

وقد فرقت السرديات خاصة منها السرديات التاريخية التي تهتم بتاريخ تطويع اللغة وظهور أشكالها التعبيرية بين ثلاث مستويات من التطويع نتجت عن كل منها نثرية من القول ففي مستوى التواصل البسيط ظهرت النثرية التواصلية الخالية من كل الأغراض الأخرى وفي المستوى البلاغي شبه المركب ظهرت النثرية البلاغية ذات الطابع التدويني وفي المستوى الإبداعي الأدبي ظهور النثرية الأدبية وقد بسط الدكتور محمد الأمين وبد مولاي إبراهيم في أطروحة "السرديات النثرية" المفسرة لظهور الأنواع النثرية والأدبية من منظور السرديات التاريخية لهذه النثريات الثلاث المولدة لنثريات الكلام المرسل في محافلها التواصلية وحواضنها اللغوية المطوعة للغة المعبرة عن "الاجتماعي" و"الثقافي" في مجتمع من المجتمعات ووصف التراكمات النثرية لهذه الطبقات في مستوياتها التواصلية والبلاغية والأدبية المولدة لأدبية الخطاب السردي[3].

ويرى الدكتور ولد مولاي إبراهيم في بسطه لأطروحة السرديات التاريخية أن "ظهور الأنواع النثرية والأشكال الأدبية عامة والسرديات منها خاصة في مجتمع من المجتمعات وثقافة مكن الثقافات ينبغي

---

[2]. اللغة والإيداع الأدبي، مرجع سابق، ص: 15

[3]. ينظر كتاب صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، عالم المعرفة، أغسطس 1992، ص: 55

[3]. د. محمد الأمين ولد مولاي إبراهيم، السرديات التاريخية والنثرية العربية نظرية ظهور الأنواع والأشكال السردية، حولية كلية الآداب والعلوم الإنسانية، العدد 15

أن يبحث عنه في محافل لغة تلك المجتمعات ومستويات تطويعها وطبقات قولها المعبرة عن "الاجتماعي" والمكثفة للثقافي ففي سياق تطويع كل لغة وتجربة تطوير أدائها عبر هذه المستويات الثلاثة"[1]

وعلى هذا الأساس فإن النثرية المركبة أو اللغة في المستوى البلاغي تقوم بتوظيف آليات البلاغة العربية من تشبيهات وجناساتوطباقات ومقابلات وتحري السجع في الكلام والفاصلة والابتعاد جملة من القول الشفاف ليكتسب الخطاب نضارة تنبع من اللغة نفسها وليس من الأخيلة أو الشاعرية، إن من أبرز وسائل النثرية في هذا المستوى استخدام السجع بوصفه حيلة فنية لجذب انتباه القراء ولقد كان التصور السائد أن السجع يكسب الخطاب قيمة ويزيده شرفا ورفعة يقول الدكتور عبد الفتاح كيليطو "للسجع وكذا للصور البلاغية الأخرى وظيفة إضفاء القيمة والشرف على الخطاب"[2].

إن اللغة في هذا المستوى يتنازعها جانبان جانب أدبي وجانب غير أدبي وهما متفاوتان في الحضور، وتعود هذه النثرية إلى بداية الوجود اللغوي الفصيح في بلاد شنقيط ولقد ظل مستشريا في الكتابات الثقافية والعلمية حتى مطلع العصر الحديث حين خفت فيه بريقه وتراجعت فيه الحظوة التي كانت تعرف في السابق وقد عزفت القراءة عن الاحتفاء بهذا اللون من التعبير يقول كيليطو "كانت البلاغة فيما مضى علما نابضا بالحياة وإذا بها الآن لا تكاد تحرك أي فضول"[3].

وهذا اللون التعبيري يبدو سباقا للظهور فقد اعتبر آدونيس السجع مهد الشفوية العربية لكن الأمر في الثقافة الشنقيطية يبدو أكثر اختلافا فلئن كان الاهتمام بهذا اللون من التعبير بدأ مبكرا فإنه لم يوجد في الشفوية وإنما في نص مكتوب هو كتاب "الإشارة في تدبير الإمارة" الذي يعد أول نص مكتوب في هذه البلاد وسيطرد هذا اللون في مقدمات الكتب وعناوينها ويرتبط عموما بالنزعة الكتابية في حين أن الأنماط الشفهية بما فيها الخطابة لم تكد تتصف بهذه الصفة.

ثالثا: تطويع اللغة في المستوى الإبداعي (النثرية الأدبية)

عندما تطمح اللغة إلى غايات أبعد من مجرد التواصل والإبلاغ وتتجاوز مرحلة البلاغة ومطابقة الكلام للحال إلى إثارة اللذة ومداعبة خيوط الفنية فإنها بذلك تصير لغة ذات خصوصية إبداعية ولقد انتبه القدماء إلى ذلك وسماها ابن الأثير شجاعة العربية وشبه الشاعر الخارج عن الأنماط المألوفة بالفارس الذي يركب جوادا لا لجام له[4] وأفردوا لها الكثير من التسميات التي هي في مجملها تعني

---

[1] د.محمد الأمين ولد مولاي إبراهيم، الشعرية التاريخية وأدبية الأدب الموريتاني قراءة لظهور الأنواع والأشكال، دار الأمين القاهرة،2001، ص: 74

[2] د.عبد الفتاح كيليطو، المقامات السرد والأنساق الثقافية،ترجمة عبد الكبير الشرقاوي،ط2، دار توبقال للنشر،2002، ص:76

[3] . عبد الفتاح كيليطو، الأدب والغرابة دراسات بنيوية في الأدب العربي،ط3، دار توبقال،2006، ص: 65

[4]. ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب،تحقيق أحمد الحوفي وبدوي طبانة، ج22، دار نهضة مصر، القاهرة، ص:8

الغرابة والتميز مثل العدول والتحويل والاتساع والمجاز والتغيير والانحراف والتحريف والخروج واللحن والتحريف والخروج واللحن والنقل والانتقال والرجوع والالتفات والصرف والانصراف والتلوين ومخالفة مقتضى الظاهر والحمل على المعنى والترك ونقض العادة وكسر البناء[1].

لقد كان ابن جني يستخدم الانحراف لهذه الخاصية الإبداعية في اللغة يقول "كلام العرب كثير الانحرافات ولطيف المقاصد وأعذب ما فيه تلفته وتثنيه"[2].

وفي العصر الحديث باتت لفظة الشعرية تختصر وتحوي هذه المفردات والمصطلحات جميعا وغيرها، لقد أصبح علم الشعرية ينهض بدراسة جميع السمات المرتبطة بالوظيفة الجمالية والإبداعية للغة العمل الفني ومختلف الخطابات يقول الدكتور محمد الأمين ولد مولاي ابراهيم "الشعرية تدل في الاستعمال الأول على سمة جمالية يتصف بها الخطاب الأدبي"[3].

إن الاهتمام بالشعرية في بنية الخطاب يعود إلى طريقة اشتغال العنصر اللغوي إضافة إلى ركوب مطية الخيال التي هي سمة من أبرز سمات العمل الفني، ولا يخفى أن اللغة في هذا المستوى تبدو أكثر اختلافا عن السابق فهي لغة تطبعها الحرارة والتكثيف وتبتعد عن المباشرة والحس وتشد القارئ إلى فضاءات لغوية إبداعية مختلفة لقد انتبه باختين إلى مسألة هامة وهي أن اللغة في المستويات السابقة لا تتذكر حيواتها لكنها في المستوى الإبداعي تستطيع ببساطة أن تتذكر مختلف استخداماتها السابقة38دون أن يؤثر ذلك على حيويتها بل يمنحها طاقة إبداعية جديدة وهذا هو ما تنشأ عنه الوظيفة التناصية وهنا تجدر الإشارة إلى أن التناص خاص بالنصوص الإبداعية فاللغة في مستوياتها الأولى لا تعرف هذه المزية.

لقد قام الدكتور أحمد حديدة بمحاولة التفريق بين المستويات اللغوية الثلاث بناء على اختلاف اللغة الإبداعية عن المستويين وانفرادها بخصائص ومميزات أسلوبية لا تتوفر في غيرها يقول (إن اللغة الشعرية لغة متميزة لها سماتها الخاصة على مستوى الصوت والدلالة والتركيب تخالف أسلوبيا لغة العلم والخطابة من جهة ولغة التخاطب اليومي من جهة أخرى)[4].

. دراسات في النقد العربي القديم، عبد السلام محمد جراد رشيد، ص: 96[2]

[2]. ابن جني، المحتسب في تبيين وجوه القراءات والإيضاح عنها،تحقيق علي النجدي ناصف ود. عبد الحليم النجار ود. عبد الفتاح إسماعيل،ج2،ط2، دار سيزكين للطباعة والنشر،1986، ص: 86

. د. محمد الأمين ولد مولاي إبراهيم، القراءة وتأسيس القراءة، ص: 94 [4]

[4] د. سامي شهاب، ومضات نقدية في تحليل الخطابين الأدبي والنقدي دراسة في الشعر والنثر ونقد النقد، ط1، 2012، ص: 20

إن أهم ما يميز اللغة الشعرية عن المستويين هو التخييل ذلك أن لغة العلم تقوم على البرهان وإثبات الحقيقة في حين أن لغة الخطابة تتأسس على مطابقة الكلام لمقتضيات الحال بينما تقوم لغة الإبداع على توظيف موسع لآليات الخيال، ونجد الخلاف يشتد بين الباحثين حول مصدر تميز شعرية الخطاب فمنهم من يرى أن المفردة الشعرية هي شعرية من حيث السياق لا من حيث معجميتها بينما يرى بعضهم الآخر بأن لغة الشعر ليست ذات قيمة بل الذي يعطيها قيمتها ويزيد منها هو المنشئ. إذن تتفق النظرتان في أن شعرية اللغة لا تنبع من المعجم فالمفردات على مستوى المعجم لا تحمل دلالات أو معاني إبداعية وإنما تجد ذلك من خلال طاقة تعبيرية سواء كان السياق بكل حيثياته هو الذي يمنحها ذلك أم كان المبدع هو ما يعطي تلك الشحنة.

إن عبد الفتاح كيليطو ينطلق من مسألة وهي أن قراءة قصيدة تحملك إلى فضاء لغوي مخالف لفضائك اللغوي اليومي[1] وهذا يعني أن لغة الشعر تبدو بكرا في حين أن اللغة في المستوى العادي على خلاف ذلك وهذا أيضا يؤكد ما ذكرنا سابقا بأن التناص لا يمكن التنبه له إلا في سياقات اللغة الإبداعية أما اللغة اليومية فهي مجرد عبارات معادة ومكررة ومستخدمة بشكل مستمر وهذا الاستخدام المستمر يقوم على أساس من تقشير كل السمات المرتبطة بالإبداع فتصير كلمات في هذه المرحلة أقرب إلى الجثث الهامدة التي لا روح فيها، فروح الكلمة وانتعاشها إنما يتأتى من الاستخدامات الإبداعية.

ليس من السهل تحديد بداية استخدامات النثرية في مستوى الإبداع على هذه الأرض ولا التكهن بذلك ولا يمكن تماما تحديد أيهما أسبق الاستخدام اللغوي العادي أم الإبداعي ونحن نرى أن اللغة تحمل هذين الاتجاهين وتسير فيهما معا في نفس الوقت واللغة في وجودها لا تستغني عن هذين الاتجاهين وسنأخذ ثلاث عينات من هذه الاستخدامات الأدبية للغة المنثورة في هذه البيئة الشنقيطية.

النتائج المستخلصة:

– الإمكانيات اللغوية ولغة التداول اليومي هي التي تتيح تصنيف شاعرية هذا القول أو أدبية ذاك.

– الدرس اللغوي بالمجمل يفشل في الوصول إلى البدايات اليقينية وكل ما هو موجود في هذا الصدد محض افتراضات وتصورات وحدوس.

– الكتابة لم توجد لتغني عن التخاطب الشفاهي وإنما من أجل طي المسافات وقهر الظروف ونقل التجارب والخبرات والاستفادة من الزمن ومحاولة التغلب على النسيان.

---

[1] . الأدب والغرابة، مرجع سابق، ص: 12

-النثرية إنما تتأتى من وجه اطراد هذه الاستخدامات التواصلية للغة وبالتالي تمثل طورا مهما من أطوار الرقي التعبيري.

- أغلب النثريات التي تتمحض للتواصل هي في الغالب ترتبط بالمادة العلمية سواء كانت مادة تاريخية أو فقهية أو غير ذلك.

-اللغة في المستوى التواصلي تظل صقيلة من التعلق بالاستخدامات السابقة وتتعود على الاستهلاك المستمر.

- الطبيعة التواصلية للغة لا تمل من الاستخدامات المتواصلة للمفردات والتراكيب والتعابير في حين أن النزعة الإبداعية تتضجر باستمرار من الاستهلاك المتواصل للغة.

-البلاغة تستند على آليات العقل ومقتضيات المنطق ومطابقة الكلام لصورة الواقع واللغة البلاغية تختلف اختلافا تاما عن اللغة الإبداعية ولكنها تشترك معها إثارة اللذة والقصد إلى إثارة بواعث الجمال.

-اللغة اليومية مجرد عبارات معادة ومكررة ومستخدمة بشكل مستمر وهذا الاستخدام المستمر يقوم على تقشير كثير من السمات المرتبطة بالإبداع فتصير الكلمات في هذه المرحلة أقرب إلى الجثث الهامدة التي لا روح فيها فروح الكلمة وانتعاشها إنما يتأتى من الاستخدامات الإبداعية.

-لا يمكن تحديدا أيهما أسبق الاستخدام اللغوي العادي أم الإبداعي ونحن نرى أن اللغة تحمل هذين الاتجاهين وتسير في اتجاههما معا في نفس الوقت واللغة في وجودها لا تستغني عنهما معا

المصادر والمراجع:

- ابنالأثير، المثل السائر في أدب الكاتب، تحقيق أحمد الحوفي وبدوي طبانة، ج22، دار نهضة مصر، القاهرة
- ابن جني، المحتسب في تبيين وجوه القراءات والإيضاح عنها، تحقيق علي النجدي ناصف ود. عبد الحليم النجار ود. عبد الفتاح إسماعيل، ط2، دار سيزكين للطباعة والنشر،1986
- جان بول سارتر، ما الأدب؟، ترجمة وتقديم محمد غنيمي هلال، نهضة مصر للطباعة
- رولان بارت، الكتابة في درجة الصفر، ترجمة محمد نديم خشفة، ط1، 2002
- د. سامي شهاب، ومضات نقدية في تحليل الخطابين الأدبي والنقدي دراسة في الشعر والنثر ونقد النقد، ط2012،1
- صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، عالم المعرفة أغسطس،1992
- طه حسين، من حديث الشعر والنثر، مؤسسة هنداوي
- عبد السلام محمد جراد رشيد، دراسات في النقد العربي القديم
- عبد الفتاح كيليطو، دراسات بنيوية في الأدب العربي، ط3، دار توبقال،2006
- د.عبد الفتاح كيليطو، المقامات السرد والأنساق الثقافية، ترجمة عبد الكبير الشرقاوي، ط2، دار توبقال للنشر 2002

. عبد الفتاح كيليطو، الأدب والغرابة دراسات بنيوية في الأدب العربي، ط3، دار توبقال،2006
. د. محمد الأمين ولد مولاي إبراهيم، السرديات التاريخية والنثرية العربية نظرية ظهور الأنواع والأشكال السردية، حولية كلية الآداب والعلوم الإنسانية، العدد 15
. د.محمد الأمين ولد مولاي إبراهيم، الشعرية التاريخية وأدبية الأدب الموريتاني قراءة لظهور الأنواع والأشكال، دار الأمين القاهرة،2001
. د. محمد الأمين ولد مولاي إبراهيم، القراءة وتأسيس القراءة، منشورات جامعة انواكشوط،2015
. د. محمد العبد، اللغة المكتوبة واللغة المنطوقة بحث في النظرية، ط1، دار الفكر للدراسات،1990
. د.محمد المختار ولد أباه، تاريخ النحو العربيفي المشرق والمغرب
مختارات من أعمال باختين، ترجمة يوسف الحلاق تقديم بطرس الحلاق إشراف جابر عصفور، المركز القومي للترجمة
. يحي بن حمزة، العلوي الطراز، صححه سيد بن علي المرصفي، مصر مطبعة المقصم

الخطاب السياسي للفقهاء خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، الأسس والمرتكزات "الشيخ سيد المختار الكنتي والشيخ سيديا الإبييري" نماذج

محمد سالم زيد
طالب دكتوراه: مكونة التاريخ
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة نواكشوط

لم يقتصردور فقهاء بلاد شنقيط. سابقا موريتانيا حاليا. خلال القرنين الثامن عشروالتاسع عشر، على المهام التقليدية الموكلة إليهم فحسب، كالفتيا والإمامة والقضاء، وإنما كانت لهم أدوار اجتماعية وسياسية واضحة المعالم، أثبتوا من خلالها اهتمامهم بهموم ومشاكل بلادهم المطروحة، خاصة منها تلك المتعلقة بالمسألة السياسية، وذلك في واحدة من أصعب الفترات التي مربها البلد، حيث غياب السلطان الجامع، القائم بأمور الناس الساهر على مصالحهم، وبناء على ذلك يمكننا القول: بأن الخطاب السياسي لفقهاء البلد خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، كان قائما على جملة من الأسس والمرتكزات، تمثلت أساسا في تشخيص المشكلة السياسية المطروحة (غياب السلطان)(الشرعية السياسية) ثم محاولة تقديم وصفات علاجية لها، كانت في مقدمتها الدعوة إلى نصب الإمام، والقبول بسلطة المتغلب درءا للمفاسد وجلبا للمصالح، ناهيك عن دعوتهم إلى وحدة الصفونبذ الخلاف، وإقامة العدل، فضلا عن أسس ومرتكزات أخرى بنو عليها خطابهم السياسي.

لكن قبل ذلك حري بنا في هذا المقام أن نؤصل لعلاقة الفقيه بالسياسة في هذه البلاد، وهو أمر لا يمكن الخوض فيه دون المرورعلى ذكر التجربة المرابطية في هذا المجال، وبالخصوص تجربة الفقيه عبد الله بن ياسين الجزولي[1]

أولا: عبد الله بن ياسين الأمير الفقيه

تأسست الدولة المرابطية في الصحراء الواقعة شمال البلاد، خلال القرن الخامس هجري الحادي عشر ميلادي، على يد قبائل صنهاجية من أبرزها: اكدالة، ولمتونة، ومسوفة، وكانت حجة زعيم اكدالة، يحي بن إبراهيم سنة أربعمائة وسبعة وعشرين للهجرة[2] بمثابة البواكير الأولى لقيام دولة المرابطين، التي ستكون فيما بعد أول تجربة سياسية، استطاعت توحيد بلاد صنهاجة وما جاورها في دولة مركزية، وقد تواترت الروايات التاريخية، على أن يحي بن إبراهيم قد مر أثناء عودته من الحج

[1]-عالم وفقيه مالكي، كان له الفضل في قيام الحركة المرابطية، حيث تولى مهمة الزعامة الروحية فيها.

[2] الناصري، أبو العباس أحمد بن خالد، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، ج2، تحقيق جعفر الناصري، ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1997، ص 6

بالقيروان، والتقى فيها بالفقيه أبو عمران الفاسي[1]، وبعد حوار دار بينهما سأل يحي بن إبراهيم الفقيه أبو عمران أن يبعث معه من تلامذته من يعلم الناس في صحراء صنهاجة أمر دينهم، فأرشده إلى فقيه في المغرب يدعى وجاج بن زلو اللمطي[2]، بعد أن أعطاه رسالة منه إليه يأمره فيها بإرسال أحد تلامذته معه إلى الصحراء، فاختار وجاج بن زلوا من بين تلامذته، الفقيه عبد الله بن ياسين الجزولي، لمرافقة يحي بن إبراهيم إلى صحراء صنهاجة ليعلمهم أمر دينهم، حيث تميز الفقيه عبد الله بن ياسين بمميزات منها: الفطنة والورع والسياسة[3]

وفور وصوله إلى صحراء صنهاجة رفقة يحي بن إبراهيم لكدالي، شرع الفقيه عبد الله بن ياسين في تنفيذ مشروعه الإصلاحي، حيث بدأ يسوس الناس بالشرع، يقول الناصري:"فشرع يعلمهم القرآن ويقيم لهم دينهم ويسوسهم بآداب الشرع"4، معتمدا في إصلاحاته تلك على جملة مرتكزات وأسس من أبرزها ما يلي:

. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: وذلك لإصلاح ما فسد من عقائد الناس، خاصة إذا ما تذكرنا أن الإسلام قبله في بلاد صنهاجة كان إسلاما سطحيا، لا يتجاوز شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وما جرى من حوار بين زعيم صنهاجة والفقيه أبوعمران الفاسي بالقيروان دليل على ذلك، حيث لم يجد أبو عمران عند يحي بن إبراهيم علم بشيء من فروض دينه، بل اعترف بجهل قومه بقوله:"أنهم قوم غلب عليهم الجهل، وليس لهم كثير علم"5، كما دل انتشار عادة "الزواج عندهم من أكثر من أربعة حرائر"على انخفاض منسوب تعاليم الشرع بينهم حتى في أبسط أمور الدين، هذا فضلا عن ارتكابهم مخالفات أخرى ومنكرات منها: الظلم وفرض المغارم على بعضهم البعض، ومما يروى عن الفقيه عبد الله بن ياسين أنه كان شديدا وصارما في تغيير كل تلك المنكرات، لدرجة لم تعد معها القبائل الصنهاجية تتحمل وجوده بينها، "لما رأت فيه من مشاق التكليف"[6]، وما لم يتوقف عن دعوته تلك واستمر في الإصرار على تغيير ما كان سائدا من منكرات طردته القبائل الصنهاجية،

---

[1]-أحد كبار أئمة المذهب المالكي في بلاد المغرب، واسمه موسى بن عيسى الغفجومي الفاسي، نزيل القيروان، توفي سنة 430 للهجرة

[2]– هو أبو محمد وجاج بن زلوا اللمطي، فقيه ممن درسوا على أبوا عمران الفاسي بالقيروان

[3]– الناصري أبو العباس، الإستقصاء، ج2، مصدر سابق ص 7

[4]– نفس المصدر السابق نفس الصفحة

[5]– نفس المصدر السابق ص 6

[6]- ولد السالم حماه الله، صحراء الملثمين وبلاد السودان، في نصوص الجغرافيين والمؤرخين العرب، دار الكتب العلمية، ط،1، بيروت ص 35

فارتحل رفقة يحي بن إبراهيمبعض مناصريهم إلى جزيرة[1]بالبحر وأسسوا بها رباطا ظلوا يتعبدون فيه، وتسموا بالمرابطين نسبة إليه.

وعلاوة على قيامه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، عمد الفقيه عبد الله بن ياسين، إلى خطوة أخرى، كانت من بين الأسس والمرتكزات التي أرسى عليها مشروعه السياسي الإصلاحي ألا وهي:

. إعلان الجهاد: فما إن وصل من رابط معه إلى الألف رجل، حتى أعلن الجهاد ضد القبائل الصنهاجية لإرغامها على دخول الإسلام الصحيح، وتصحيح معتقداتها، وقد خطب في أصحابه قائلا:"معشر المرابطين إنكم اليوم جمع كثير، نحو الألف ولن يغلب ألف من قلة"[2]ونجده يتبع في هذه الخطوة ما كان يفعله النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته أثناء الفتوحات من عدم مناجزة العدو قبل إقامة الحجة عليه، ودعوته باللين والموعظة الحسنة، ولذلك لما أظهر المرابطون استعدادهم للجهاد في سبيل الله ونشر دعوتهم كان مما قال لهم:"اخرجوا على بركة الله وأنذروا قومكم، وخوفوهم من عقاب الله، وأبلغوهم حجته، فإن تابوا فخلوا سبيلهم، وإن وأبوا وتمادوا في غيهم ...جاهدناهم حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين"[3]، ولما بدا له اليأس من رضوخ صنهاجة لدعوته بادرهم بالقتال، بادئا باكدالة، ثم أتبعها بلمتونة، ومسوفة، ثم بعد ذلك دخلت باقي القبائل في طاعته وبايعته، حينها شرع يأمرهم بالصلاة والزكاة، ثم أنشأ بيت مال جمع فيه تلك الأموال، واغتنى منها السلاح والركائب، وجهز جيشا غزى به القبائل المجاورة لصحراء صنهاجة، مثل بلاد السودان، وعموم بلاد المغرب، فاستحق بذلك نيل لقب الفقيه الأمير، لأنه من جهة كان يؤدي أدوار الفقيه المتعارف عليها، كالإمامة، والقضاء، والفتيا، ومن جهة أخرى كان يؤدي أدوار الأمير، المتمثلة بسياسة الناس بالشرع وإقامة الحدود، وتعيين الولاة والعمال، وحثهم على التحلي بالعدل والرفق بالرعية، بل إنه زاد على ذلك فكان يقوم بمهمة لا تقلأهمية عما سبقها من أمر بمعروف ونهي عن منكر وجهاد ألا وهي:

. تنصيب الأمراء: وفي هذا الصدد تشير المصادر التاريخية، إلى أنه كان ميالا لقبيلة لمتونة، بسبب انصياع رجالها لأوامره، فكافأهم بأن جعل الإمارة فيهم، وقد أشار الناصري إلى تقديمه يحي بن عمر اللمتوني، لخلافة يحي بن إبراهيم لكدالي، وأوكل إليه مهمة النظر في شؤون الحرب، في حين كان هو نفسه يهتم بالجانب الديني، وأحكام الشرع وأخذ الزكاة والأعشار، وكان يحي بن عمر شديد الانقياد لعبد الله بن ياسين، ذلك أنه سمح له بتأديبه ذات يوم عشرين سوط، بسبب مباشرته للقتال مع جنده،

---

[1] جزيرة اختلف الدارسون في تحديد موقعها، جاء وصفها في الاستقصاء على لسان يحي بن إبراهيم لكدالي، راجع الاستقصاء، ص 8

[2]– الناصري، الاستقصاء، ج،2، مصدر سابق، ص 8

[3]– نفس المصدر السابق، ص 9

حيث قال له:"إنما ضربتك لأنك باشرت القتال، واصطليت نار الحرب بنفسك، ... فإن الأميرلا يقاتل وإنما يقف يحرض الناس... فحياة الجند بحياة أميرهموهلاكهم بهلاكه"[1]، وفي هذا دليل واضح على مدى خبرة ابن ياسين في شؤون الحكم، وتدبير أموره، فهو بذلك فقيه أمير بل وصانع الأمراء أيضا، وبالتالي فالحديث عن تجربته الإصلاحية في هذه البلاد، يمكن النظر إليها باعتبارها تأصيلا مهما لموضوع علاقة الفقهاء بالممارسات السياسية في هذه الربوع، مع أنه لا يمكن الحديث أيضا عن تلك العلاقة، دون المرور على ذكر تجربة فقيه آخر عرفته الصحراء منذ العهد الوسيط، ألا وهو: أبو بكر المرادي الحضرمي، الذي سبقت منا الإشارة في الفصل الثاني من هذا العمل إلى تجربته السياسية الرائدة، والتي جسدها في كتاب عنونه ب "الإشارة في تدبير الإمارة" أهداه إلى الأمير المرابطي، أبو بكر بن عمر اللمتوني، ويوحي هذا المؤلف إلى أن صاحبه قد بلغ شأوا كبيرا في شتى المعارف والعلوم، وجمع بين اختصاصات متعددة، فهو الفقيه والمفكر السياسي المحنك، وهو الفيلسوف والأديب المتمكن، وقد حرص من خلال مؤلفه على تقديم رؤية سياسية متكاملة الأبعاد، من شأنها أن تسعف أولياء الأمور بالآليات الضرورية لضمان استمرار ملكهم، فكان طرحه هو الآخر بمثابة الدليل الواضح على اهتمام الفقهاء في هذه البلاد منذ القديم بالمسألة السياسية، كما أنه دليل كذلك على أنهم لم يقفوا مكتوفي الأيادي دون المشاركة في إدارة شؤون البلاد والعباد.

وعلى خطاهم سار فقهاء وعلماء البلد، خلال القرنين الثامن عشر وتاليه التاسع عشر، في الاهتمام بالمسألة السياسية، حين طفقوا من خلال فتاويهم ومراسلاتهم، يشخصون الأزمة السياسية التي عانت منها البلاد، محاولين وضع الحلول المناسبة لها، فقدموا خطابا سياسيا قوي الأركان متماسك البنيان، فندوا من خلاله أطروحة كثيرة التداول بين الدارسين لتاريخ هذه الربوع، مفادها أنها أي هذه البلاد لا تمتلك تقاليد راسخة في مجال ممارسة السلطة، كما اتهمت أهلها بقصور في التفكير السياسي.

ثانيا: الخطاب السياسي للفقهاء الأسس والمرتكزات

في ما يلي سنقدم قراءات مقتضبة في الخطاب السياسي لبعض فقهاء وعلماء البلد خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ويتعلق الأمر بكل من الشيخين: الشيخ سيدي المختار الكنتي،والشيخ سيديا ابن المختار ابن الهيبة الأبييري، مع التذكير بأن اختيارنا لهذين النموذجين لم يأت من باب الفراغ وليس أيضا من باب الاعتباط، وإنما لاعتبارات منها: حرصنا على أخذ عينات ونماذج كان لها بالغ التأثير على كامل المجال الموريتاني من شرقه إلى شماله مرورا بوسطه وانتهاء بجنوب غربه، واحتراما منا للمسار لكرونولوجي للأحداث سنبدأ بالأكبر سنا والأقدم تجربة ألا وهو:

[1]-الناصري، الاستقصاء، ج 2، مصدر سابق ص 11

+الشيخ سيد المختار الكنتي:هو المختاربن أحمد بن أبي بكر بن محمد حبيب الله بن الوافي بن سيد اعمر بن سيد امحمد الكنتي، الجد الجامع لقبيلة كنتة[1]، عالم وفقيه وصاحب زعامة صوفية،وذا مكانة سياسية في قومه وغيرهم، من مواليد سنة ألف ومائة واثنين وأربعين للهجرة، وقد ترجم له صاحب فتح الشكور، واصفا إياه بالولاية والعبادة، والزهد وعلو المقام في قومه، والموسوعية العلمية[2]، حيث كان من مؤلفاته:(تفيسر البسملة) و(تفسير الفاتحة) و(نضار الذهب في كل منتخب) و(نزهة الراوي وبغية الحاوي) و(هداية الطلاب)، إلى غير ذلك من المؤلفاتالمفيدة في مختلف العلوم الشرعية واللغوية، كما وصفه صاحب الوسيط بالعلم والصلاح، مشيرا إلى أن مؤلفاته في شتى المجالات تدل على ذلك[3]، ويعتبر الشيخ سيد المختار الكنتي مرجعية في التصوف، حيث يعود له الفضل في تأسيس الزاوية الكنتية في (أزواد) والتي كانت قبلة أمها طلبة من كل ناحية، وكان من مؤلفاته في التصوف، (جذوة الأنوار في الذب عن أولياء الله الأخيار) و(الجرعة الصافية والنصيحة الكافية) و(الكوكب الوقاد في فضل المشايخ والأوراد) وقد توفي رحمه الله تعالى في سنة ألف ومائتان وستة وعشرين للهجرة[4]

الخطاب السياسي للشيخ سيد المختار الكنتي

يبدو أن الشيخ سيد المختار الكنتيمن خلال مؤلفاته ومراسلاته أنه لم يكن ذلك الراهب المنقطع عن أمور الناس وقضاياهم، وإنما جمع بين الفقه وتربية النفوس من جهة، وبين أمور السياسة من جهة ثانية،فمن خلال تلك المؤلفات نلاحظ أنه قدم خطابا سياسيا متماسكا، وآراء من شأنها أن تساعد البلاد على تخطي أزمتها السياسية، المتمثلة في غياب السلطان الجامع، وقد جمع الشيخ سيد المختار في طرحه السياسي على ما يبدو بين الإجراءات العملية من ناحية، والتنظير من ناحية ثانية، فعلى المستوى العملي اتبع سنن غيره من زعماء الطرق الصوفية، من حيث الاستقلال التام عن الإمارات الحسانية، واتخاذ موقف وسطي يقوم من خلاله بدور الوسيط في النزاعات التي كانت تظهر بين الفينة والأخرى، وذلك حفاظا منه على تحقيق السلم الأهلي، فأصبحت بذلك زاويته مكانا آمنا يوفر الحماية لكل من احتمى به من الجور والظلم، وقد أشار ابنه الشيخ سيد محمد الخليفة إلى ذلك بقوله:"إن الشيخ رضي الله عنه قدم وكنانة وغيرها من الزوايا والمساكين، غنم لا زريبة عليها، واللصوص من (التوارق) وغيرهم سباع عابثة بتلك الغنم، تأكل ما شاءت وتدع ما شاءت، فلما جاء زرب لتلك الغنم زريبة من الخوف والهيبة والمساواة، ردت اللصوص عن الزوايا والمساكين طوعا

---

[1]الشيخ سيد محمد الخليفة، الرسالة الغلاوية، تحقيق الدكتور حماه الله ولد السالم، دار الكتاب العلمية، بيروت لبنان، ص 7

[2]– البرتلي، فتح الشكور، مصدرسابق، ص 272

[3]– الشنقيطي، أحمد الأمين، الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، مصدر سابق، ص 362

[4]– ابن حامد، المختار، الحياة الثقافية، مصدر سابق، ص 33

وكرها"[1]، وكأنه بذلك قد جعل ممن زاويته أو حضرته إمارة ظل أو سلطة موازية لسلطان القبائل الحسانية أو المغفرية.

وعلى مستوى التنظير السياسي فقد قدم الشيخ سيد المختار طرحا سياسيا عبر فيه عن آراءه حول قضايا سياسية مختلفة، كمسألة الخلافة والوزارة، والقضاء، والجيش ونظام الحسبة، وغير ذلك من الأمور التي تدخل في صميم السياسة وإدارة شؤون الرعية، وذلك من خلال مؤلفه المعنون ب"البرد الموشا في قطع المطامع والرشا"، وفي ما يلي سنعرض بعض آراءه حول المواضيع الآنفة الذكر:

* رأيه في مسألة الخلافة: من النافلة القول بأن الخلافة أو الإمامة العظمى، ضرورة لا يمكن لأي اجتماع بشري مسلم الاستغناء عنها، لما يترتب عليها من أمور الدين والدنيا معا، ولذلك فقد قدم الشيخ سيد المختار الكنتي رأيه فيها مبينا الشروط التي ينبغي توفرها في الخليفة أو الإمام الأعظم، وهي نفس الشروط التي سلفت منا الإشارة إليها في الفصل الأول من هذا العمل، والتي كانت محل إجماع تقريبا من فقهاء المسلمين باختلاف مذاهبهم، ومن تلك الشروط التي أكد عليها الشيخ سيد المختار الكنتي، الإسلام والحرية، والذكورة، والبلوغ، وسلامة العقل، والعلم والعدالة، والكفاية وهي: الشجاعة،وسداد الرأي، والنجدة، ثم النسب، وسلامة الحواس والأعضاء[2]، كما تطرق الشيخ سيد المختار الكنتي إلى مسألة تولي الأحداث شؤون الإمارة، حيث أدت هذه الظاهرة في كثير من الأحيان بالأنظمة السياسية إلى الضعف والسقوط، فتولي الأحداث الحكم جعل الأمور تجري في غير مجراها، فانتشرت الفتن والبلايا والفساد[3]، وقد عرف الشيخ سيدي المختار الكنتي الأحداث بقوله: "وحقيقة الأحداث كل من لم يبلغ أشده وتتكامل قوته العقلية، ولم تحنكه التجارب فيستحكم رأيه، ويستفحل نظره، لأن قوة العقل إنما تستحكم في سن الكهولة، وهو ما بعد الأربعين"[4]، ويبدوا من خلال تلميحات الشيخ سيد المختار الكنتي أنه لم يكن راضيا عن ظاهرة تولي الأحداث لأمور المسلمين، لأنهم أقل خبرة في السياسة، هذا إضافة إلى كونهم أكثر ميلا لإتباع أهواءهم وشهواتهم، وهو ما سيشغلهم بدون شك عن السهر على مصالح الرعية، وقد ضرب مثالا على ذلك بتولية كل من مروان بن

---

[1]-ولد الحسن أحمد، نقلا عن الشيخ سيدي محمد الخليفة، الشعر الشنقيطي في القرن الثالث عشر الهجري، مرجع سابق، ص 106

[2]– الحمدي أحمد، نقلا عن الشيخ سيد المختار الكنتي، الريادة العلمية والمشيخة، الصوفية في أزاواد، حياة الشيخ سيد المختار الكنتي السياسية والعلمية، دار قوافل للنشر، ط 1، 2017، ص 286

[3]-الفارابي، وأبي القاسم المغربي، وابن سيناء، مجموع في السياسة، تحقيق فؤاد عبد المنعم أحمد، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية، ص 57

[4]–الحمدي أحمد، نقلا عن الشيخ سيد المختار الكنتي، الريادة العلمية والمشيخة الصوفية في أزواد، مرجع سابق ص 288

الحكم1، ويزيد بن معاوية[2]، مشيرا إلى ما حدث في عهدهم للدولة الإسلامية من ترد للأوضاع بسبب الفتن التي عصفت بها قائلا :"إنما سميناهمأحداثا لغلبة الشهوة عليهم، حتى فقدوا التمييز، فركبا في استفاء أغراضهما متن الهوى، وخبطا في الأمور خبط عشواء"[3].

* رأيه في الوزارة: صنف الشيخ سيد المختار الكنتي الوزراء إلى ثلاثة أصناف، ظالم لنفسه، مثبط للأميرعن فعل الخير معين له على فعل الشر، محب للفاسقين، مبغض للصالحين، وبالتالي يجب على الأمير الحذر منه وإبعاده، أما الصنف الثاني فهو الوزير المتماهي مع السلطان، السائر مع رغباته، فلا يأمره بفعل الخير، ولا ينهاه عن فعل الشر، أما الصنف الثالث، فهو الوزير الصالح صاحب الرأي الثاقب، والتدبير الصائب، وهو الذي قد ميز الأمور واستجمعها، ومارس الأمور فاستحكمها، إذا جهل الأمير علمه، وإذا نسي خيرا ذكره...لا يساعد على الباطل وإن أكره عليه[4]، كما تحدث الشيخ سيد المختار الكنتي، عن وزارة التنفيذوهي المنوط بصاحبهاتنفيذ أوامر الخليفة بشكل حرفي دون زيادة أو نقصان، وذكر شروطا ينبغي أن يتحلى بها الوزير، منها الأمانة والصدق، والذكاء والتجربة، والبعد عن السير على الأهواء[5].

* رأيه في الولاية: حيث أشار إلى أن الوالي كان في النظم الإسلامية، يقوم بالنيابة عن الخليفة في الولاية التي هو على رأسها، ومن مهامه تولية القضاة والوزراء، والقادة والجباة[6]، كما يشير في مؤلفاته إلى منصب القضاء في النظم الإسلامية، حيث يقوم بالفصل بين الناس، في الأمور المتعلقة بحياتهم اليومية، كالخصومات والطلاق، والديونوالتجارة والعقارات، والقاضي هو نائب الإمام في تنفيذ الأحكام الشرعية، ولذلك وجب عليه الفصل في هذه المسائل[7]، كما يشير الشيخ سيد المختار الكنتي إلى مسألة (الحسبة) والتي لا تقل أهمية عما سبقها من أمور، مرتبطة بالسياسة وإدارة شؤون الرعية، والحسبة هي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي من مهام السلطان، وأصلها في القرآن قوله تعالى:"ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر"[8]، وقد عرف الشيخ

---

[1]–الخليفة الأموي الرابع، وقد حكم الدولة أقل من سنة.

[2]– هو أبو خالد يزيد بن معاوية بن أبي سفيان بن حرب بن أمية، ثاني خلفاء الدولة الأموية

[3]– الحمدي أحمد، نقلا عن الشيخ سيد المختار الكنتي، الريادة العلمية والمشيخة الصوفية، م س ص 288

[4]– نفس المرجع السابق، ص 289_290

[5]– نفس المرجع السابق، ص 291_ 292

[6]-نفس المرجع السابق، ص 292

7– نفس المرجع السابق، ص 302

[8]–سورة آل عمران الآية 104

سيد المختار الكنتي المنكر قوله:"أي شيء قبيح قبحه الشرع قولا وفعلا ولو صغيرا"[1]، وقد كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أولويات الشيخ سيد المختار الكنتي، حيث انطلق في خطابه السياسي من هذا المرتكز، وذلك ما نلاحظه من خلال مراسلاته مع الأمراء وزعماء القبائل، معتبرا أن ما آلت إليه البلاد من فوضى ومنكرات، مرده غياب السلطان الجامع القائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والأخذ على أيدي الظلمة.

ومما سبق يتضح أن الشيخ سيد المختار الكنتي، كان على مطلعا على أمور السياسة ونظمها خاصة الإسلامية، وهو ما دلت عليه مؤلفاته، وعلى وجه الخصوص مؤلفه المعنون ب "البرد الموشا في قطع المطامع والرشا" حيث تحدث فيه عن الخلافة والشروط التي ينبغي توفرها في الخليفة أو الأمير، وكذلك الوزارة وشروطها، والقضاء ومهامه، وبيت المال وموارده، من زكاة وغنائم وجزية، وفي كل هذا دليل على امتلاكه رصيدا كبيرا في أمور السياسة، وإدارة شؤون الرعية. وبناء على ذلك يمكننا القول بأن المدرسة الكنتية ممثلة في زعيمها الروحي الشيخ سيد المختار الكنتي، ومريديه قد قدمت خطابا سياسيا، قام على أمور من ببينها:

* تشخيص الواقع السياسي للبلاد ومن ثم اقتراح الحلول المناسبة له، حيث اعتبر شيوخ هذه المدرسة أن الواقع السياسي الصعب الذي تعاني منه البلاد، يعود في الأساس إلى غياب السلطان، أو الإمام الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر، والمطبق للحدود، وبالتالي فالحل بالنسبة للشيخ سيد المختار الكنتي، يكمن في ضرورة وجود ذلك السلطان، وهوما نوه إليه في بعض رسائله في معرض تفسيره لقول الله عز وجل:"ولولا دفاع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين"[2]، مبينا أن ذلك يعني أنه لولا أن الله تعالى أقام السلطان في الأرض فيدفع به القوي عن الضعيف، وينتصر للمظلوم من الظالم، لأهلك القوي الضعيف، ولتواثب الخلق بعضهم على بعض، فلا ينتظم لهم حال، ولا يستقر لهم قرار، فتفسد الأرض ومن عليها، ثم امتن الله على الخلق بإقامة السلطان، فقال:"ولكن الله ذو فضل على العالمين" يعني في إقامة السلطان، ليكون فضله على الظالم كف يده، وفضله على المظلوم كف يد الظالم"[3] ويؤكد ابنه الشيخ سيد محمد الخليفة، على أن سبب أزمة البلاد مردها في الأساس شغور منصب السلطان، أو الفراغ السلطوي، إضافة إلى الأداء السيئ للإمارات الحسانية أو بعض أمراءها، مشيرا إلى أن ممارساتهم لا تنسجم مع تعاليم الإسلام ولا قيمه

---

[1]– الشيخ سيد محمد الخليفة، أوثق عرى الاعتصام للأمراء والوزراء والحكام، تحقيق، بادي بن بادي بن باب، شركة المدينة المنورة للطباعة والنشر، جدة، 1421هـ، ص 27

[2]-سورة البقرة الآية 251

[3]–ولد شيخنا، سد اعمر، كيف استجابت الطريقة القادرية لسد الفراغ السلطوي، مقال متوفر على موقع الأخبار أنفو

المتمثلة في العدل بين الناس، بل إنهم كانوا يحكمون وفق أهوائهم ومصالحهم الدنيوية، "فإذا أقام أحدهم حدا من الحدود أو رد مظلمة من المظالم، إنما يعمل بذلك على مقتضى هواه، وعلى الوجه الذي ينتظم به شمل دنياه، ولا يرجوا بذلك ثوابا"[1]ولم يقتصر الخطاب السياسي للشيخ سيد المختار الكنتي على تشخيص الواقع فحسب وإنما قام بأمور أخرى من بينها:

* الأمربالمعروف والهي عن المنكر: حيث قام بتلك المهمة من خلال فتاويه ورسائله المختلفة، وذلك بأسلوب طبعته الحكمة، والموعظة الحسنة، وكان مما قال في هذا الصدد"لا يمنع من الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، إلا نقص في الدين أو ضعف في الهمة" ويقول"لا يمنعن أحدكم من الأمر بالمعروف عدم الائتمار به، ولا يرده عن الزجرعن المنكر عدم الازدجار عنه، فقد كان السلف الصالح رضي الله عنهم، ينهون الملوك والأمراء، كما ينهون الضعفة والوزراء"[2].

* سياسة إعمار الأرض: فعلى الرغم من زهد الشيخ سيد المختار الكنتي في الدنيا وملذاتها، إلا أنه كان حريصا على اعمار الأرض، وتوفير ما تحتاجه الساكنة من مقومات البقاء، فكان رحمه الله يحفر الآبار لإعادة إحياء مواتها، وينفق في سبيل ذلك ما ملكت يداه، ويقوم بتعميقها أربعين قامة، لينتفع بها عامة الناس دون تمييز ببينهم، ومع ذلك لم يكن يمد يده لأي من الأمراء طلبا للمال، بل نجده في إحدى رسائله السياسية، إلى الأمير المختار بن آغريشي، يخاطبه فيها قائلا:"... فنحن ممن يتعفف، ولسنا ممن يتكفف، ولسنا بصدد الرسائل المالية، بل ما وفقك الله له أتانا من غير مسألة، ولا إشراف نفس، وما لا تأثير له في تأكيد محبة، ولا تحقيق صحبة، ثم ختمها بقوله تعالى(إن الله هوالرزاق ذو القوة المتين)[3].

* الحرص على إصلاح ذات البين: حيث دلت بعض رسائله الموجهة إلى رؤساء بعض المجموعات الحسانية، على أنه كان حريصا على إصلاح ذات البين، وحفظ السلم الأهلي، في المنطقة عموما، وفي المجال الموريتاني على وجه الخصوص، ومن الأمثلة على ذلك، رسالته الموجهة إلى رئيس أولاد علوش هنون بن بيده، حين استشاره في رغبة مجموعته في الانتقال إلى الناحية الغربية من أزواد، حيث مجال سيطرة الطوارق، وقد رد الشيخ سيد المختارعلى تلك الرسالة بقوله"...هذا وإنه من عبد ربه المختار بن أحمد بن أبي بكر... إلى ... هنون بن بيده، ألف سلام عليكم، ورحمة الله وبركاته،... وحاصل الأمر أن عيني من ورائكم، وأنتم تحفظون أنفسكم، واستعملوا الحزم في أموركم،

---

[1]– ولد شينخنا سيد اعمر، الفكر السياسي في غرب الصحراء، دراسة في تجربة وأدبيات المدرسة الكنتية،ط 1، 2012، مطبعة توب بريس، الرباط، ص 72

[2]–الشبخ سيد محمد الخليفة، الطرائف والتلائد في حياة الشيخين الوالدة والوالد، تحقيق يحي ول سيد أحمد، ج 2، ص 145

[3]-الحمدي أحمد، الريادة العلمية والمشيخة الصوفية في أزواد، مرجع ساق، ص 211_212

حتى أرى التوارق ويروني، وأشافههم بالكلام لأعلم ماعندهم... ولأحب إلي بقاءكم في أرضكم هذا العام.. حتى تسكن هذه الفتنة العظيمة، فإن سكنت كنتم على بصيرة من أمركم...وذكرت أن بينكم وبين أبناء امبارك غيظا فلا عليكم أن تصلحوه، فإن زوال غيظ الصديق أسهل من استصلاح عداوة القديم، وسنان الصديق خيرمن رمح العدو، واستصلاح دار أسهل من ابتداء دار"[1].

* العلم وتربية القلوب: فلما أسس الشيخ سيد المختار الكنتي زاويته في أزواد، أمها طلبة العلم من كل حدب وصوب، حيث نهلوا من معين علمه في شتى المجالات، ثم بادروا إلى نشر ما أخذوا عنه في باقي أرجاء البلاد، حيث كانت زاويته تدرس إضافة إلى القرآن، الفقه المالكي، والعقيدة، وعلم الحديث واللغة وعلومها، من نحو وصرف وبلاغة، كما تميزت الزاوية بالتصوف وتربية القلوب، وحث مريديها على فعل الخير وتجنب الشر، والاقتداء بشيخهم، والتشبه به والاتصاف بصفاته[2]، وكان من الذين أخذوا عنه على سبيل المثال: ابنه الشيخ سيد محمد الخليفة، والشيخ سيديا الأبييري، والشيخ القاضي بن الحاج ألفغ الإجيجبي، والشيخ المصطف بن العربي وغيرهم، حيث اعتمد الشيخ سيد المختار الكنتي، عليهم وباقي المريدين من أجل إنجاح مشروعه السياسي الإصلاحي، ونشره على نطاق واسع في المجال الموريتاني، "فمن أجل سد فراغ الدولة قام الشيخ سيد المختار بتشكيل شبكة تواصل منظمة، وبتراتيب إدارية صوفية لوصل المجتمع رأسيا وعموديا... فكانوا مبلغين أوصلوا رسالته، إلى العديد من مناطق إفريقيا"[3]

وعلى العموم يمكننا القول بأن الشيخ سيد المختار الكنتي، قد سخر جهده في سبيل الإصلاح السياسي، في كامل منطقة غرب إفريقيا بما في ذلك موريتانيا، مركزا في خطابه السياسي على جملة أمور منها: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإحياء الموات من الأرض، وتعليم الناس وتربيتهم، ناهيك عن دوره المشهود في إصلاح ذات البين ووأد الفتن، والحرص على السلم الأهلي.

الخطاب السياسي عند الشيخ سيدياالابييري

يعتبر الشيخ سيديا[4] من بين الشخصيات الأكثر تأثيرا في المجال الموريتاني خلال القرن التاسع عشر الميلادي، إذ لم يقتصر دوره في البلاد على الجانب العلمي فحسب، وإنما أهلته مكانته السامية في المجتمع، وعلاقاته الواسعة بكل أطيافه للقيام بأدوار متعددة الأبعاد، فهو العالم والشاعر، والفقيه المتمكن، والسياسي المحنك، حيث قام بجهود إصلاحية كان لها بالغ الأثر في البلاد، وذلك في

---

[1]– الشيخ سيد محمد الخليفة، الطرائف والتلائد، في حياة الشيخين الوالدة والوالد، مصدر سابق، ص 410

[2]– الحمدي أحمد، الريادة العلمية والمشيخة الصوفية في أزواد، مرجع سابق، ص 211_212

[3]-ولد شيخنا سيد أعمر، الفكر السياسي في غرب الصحراء، مرجع سابق، ص 76

[4]– سبق منا التعريف به

واحدة من أصعب الفترات التي مرت بها، حيث الفوضى الناجمة عن غياب الإمام الجامع القائم بأمور الرعية، وقد أقام الشيخ سيديا. كما يبدو من خلال رسائله وفتاويه المختلفة. مشروعه السياسي الإصلاحي على جملة أسس ومرتكزات تمثلت في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى جمع الكلمة وإصلاح ذات البين، ونشر قيم العدل والجهاد في سبيل الله، حيث تمكن بعد عودته من رحلته العلمية، من جمع الناس حوله، متخذين منه شيخا مربيا، ومرشدا معلما، آمرا بالمعروف وناهيا عن المنكر، ورئيسا سياسيا للعامة[1] مع أن ذلك لم يغره بالدعوة لنفسه كسلطانعلى الناس، بل كان على ما يبدوا من خلال مراسلاته، مع جهات أميرية مختلفة، معترفا بسلطتهم السياسية على المجالات الجغرافية الواقعة تحت سيطرتهم ونفوذهم، ولعل ذلك ما كان سببا في نيله مكانة عالية في نفوس الجميع، زوايا كانوا أو حسانا، وهو ما أشار إليه ابن الأمين الشنقيطي، في سياق حديثه عن شمائله وفضائله، حيث أشار إلى إذعان كل من الزوايا وحسان له حتى صار بمثابة الملك بينهم... وكانت العرب في أرض شنقيط تجعله حرما آمنا، فيجتمع عنده أحدهم بمن قتل أباه وأخاه، فيجلسهما على مائدة واحدة حتى يقضي بينهم[2]، وفيما يلي سنحاول من خلال قراءة في بعض رسائله، ومؤلفاته تبيان أسس ومرتكزات مشروعه الإصلاحي في المنطقة، حيث يمكننا القول بأن خطابه السياسي قام على أسس ومرتكزات من بينها ما يلي:

* الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: فقد ركز الشيخ سيديا في مراسلاته إلى أمراء حسان ورؤساء المجموعات القبلية، على أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، وهو أمر له ما يبرره، خاصة إذا ما تذكرنا أن البلاد كانت تعيش في حالة من عدم الاستقرار السياسي الناجم عن الفوضى بسبب غياب السلطان الجامع، مما أدى إلى انتشار الظلم والمنكرات، وهو ما جعل الشيخ سيديا، يركز في مشروعه الإصلاحي على مسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حيث وجه رسائل عديدة في هذا الجانب لأمراء حسان، يدعوهم فيها إلى التعاون على البر والتقوى، فجاءت معظم رسائله مفتتحة بالتأكيد على هذه المسائل، ومن الأمثلة على ذلك ما تكرر في تلك الموجهة منها إلى أمراء اترارزة خاصة محمد لحبيب، الذي خاطبه الشيخ سيديا قائلا:"أما بعد فإنا نوصيك ونوصي أنفسنا بتقوى الله العظيم، واقتفاء سنة نبيه الكريم"[3]، وخاطبه في رسالة أخرى مؤكدا عليه وحاثه على ضرورة العدل بين الناس،

---

[1]– ولد السعد، محمد المختار، رسائل الشيخ سيدي الكبير إلى الكيانات السياسية، والمجموعات القبلية، مصدر سابق، ص 31

[2]-ابن الأمين، الشنقيطي، الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، مرجع سابق،241

[3]– ولد السعد، محمد المختار، رسائل الشيخ سيديا الكبير إلى الكيانات السياسية والمجموعات القبلية، مصدر سابق، ص 10

والرفق بهم، مذكرا إياه بأن الدول لا تستقيم إلا بالعدل، وأن الرفق ما دخل في شيء إلا زانه، والخرق أي العنف ما دخل في شيء إلا شانه، ويدرك بالرفق والسياسة ما لا يدرك بالعنف والرياسة[1]، وقد فصل الشيخ سيدي مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذلك في رسالته المعنونة "بالميزان القويم والصراط المستقيم" التي بعث بها إلى جماعة اجيجبة لما أرادت تطبيق الحدود" والقيام بوظيفة الإمام الأعظم المتمثلة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حيث أوضح لهم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية، ويتم بواسطة اليد لمن له القدرة على ذلك، بشرط أن لا يجلب فتنة أو ضررا أكبر، فكان مما جاء في تلك الرسالة(... وبيانه أيضا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الذي نحن بصدده وفي قصد مقصده، أنه من كان بحال القدرة على الجبر والقهر وتغيير المنكر باليد، وإظهار العضد، مع الأمن في ذلك من وقوع المفسدة، وإثارة الفتنة... لزمه الإتيان بالمأمور من الأمر والزجر وتغيير المنكر، على الوجه الأكمل فيه)[2]، وإلا فيجب التخلي عن تغييره باليد وتغييره باللسان، لمن له القدرة على ذلك، بشرط أن لا يؤدي إلى فتنة وضرر أكبر، وفي حال عدم القدرة على تغيير المنكر باليد واللسان، فعلى الإنسان تغييره بقلبه وإنكاره، وهذا الأخير فرض عين على الجميع، وفي هذا السياق يتنزل الحديث الذي رواه أبو سعيد الخدري، رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان"[3]

*إصلاح ذات البين: لم يقتصر مشروع الشيخ سيدي الإصلاحي على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فحسب، وإنما قام على أسس ومرتكزات أخرى ممن بينها إصلاح ذات البين، فمن خلال رسائله الموجهة إلى جهات مختلفة، كان الشيخ سيدي حريصا على رأب الصدع وإصلاح ذات بين الأفراد والجماعات، وقد أهلته مكانته التي حظي عند الجميع للقيام بمثل هكذا دور، حيث تدخل في قضايا متعددة من أجل حلها، كان منها على سبيل المثال القضية "التابيتية" التي تطلب تسويتها وقتا وجهدا كبيرين، وتحمل في سبيل حلها أعباء السفر وبذل المال والوقت، كما تدخل في قضايا أخرى منها الوساطة بين اترارزة وآدرار، وذلك من أجل تخفيف حدة الصراع بين هاتانالإمارتان، وقد وجه في هذا الشأن رسائل إلى أمير اترارزة محمد لحبيب يحثه على طي صفحة الخلاف بينه وأمراء آدرار، فكان مما قال مخاطبا محمد لحبيب "ثم لتعلم أيضا أن الصواب عندنا بل المتعين، إتمام

---

[1]– ولد السعد، محمد المختار، مصدر سابق، ص 12

[2]– نفس المصدر السابق، ص 261

[3]– حديث صحيح رواه مسلم في صحيحه

الإصلاح الواقع بينك وبين أهل آدرار، بأن ترسل إليهم من يخبرهم من قومك بأنك غير مشار لهم ولا مشتغل بحربهم"[1]، ويؤكد حرصه على طي صفحة الخلاف بين الإمارتينفي رسالة أخرى بعث بها إلى محمد لحبيب يحثه فيها على إصلاح ما بينه وأمير آدرار ول أحمد عيده[2]، معتبرا أن ذلك أولوية بالنسبة له حيث يقول(... وتحملهم عليه بحسب الإمكان، طلبا لإصلاح ذات بين الفريقين، فإنه من أهم الهموم عندنا، وينبغي لكل مسلم أن يكون كذلك)[3] ونجده أيضا يخاطبه في رسالة أخرى مطالبا إياه بإصلاح ذات بينه وكناتة وتطييب نفوسهم، حتى لا تبقى بين الفريقين عداوة، ولا بغض ولا ضغينة[4]

وعلى العموم فإن المطلع على رسائل الشيخ سيدي إلى الكيانات السياسية والجماعات القبلية المختلفة في عصره، سيلاحظ أن معظمها كانت في مواضيع متعلقة بإصلاح ذات البين، ورأب الصدع بين الجماعات والأفراد، وهو ما يؤكد أنه في مشروعه الإصلاحي كان يولي أهمية خاصة لمسألة إصلاح ذات البين، وهو ما ممن شأنه تخفيف حدة الصراع والقضاء على الفتن والحروب، التي كانت سببا في انتشار حالة السيبة في البلاد وبين العباد.

* الدعوة إلى التحلي بقيم العدل والمساواة بين الرعية: وهو أساس ركز عليه الشيخ سيدي في خطابه السياسي، حيث حث الأمراء ورؤساء المجموعات القبلية، على إقامة العدل مذكرا إياهم بأنه أساس الملك، ومن ذلك قوله مخاطبا الأمير محمد لحبيب (... نوصيك بالعدل في الأرض التي أنت متوليها، والبقعة التي أنت فيها)[5]، وقد استمر الشيخ سيدي في حث أولي الأمر على العدل بين الرعية، والرفق بها لأن ذلك سببا في نشر الطمأنينة بين مرؤوسيهم، مما يجعلهم أكثر قبولا بينهم، وهو ما سينعكس بشكل إيجابي على حياة الرعية، وعلاوة على ذلك فالعدل سنة نبوية بل كان الشيخ سيدي يعتبره من أعظم من أعظم السنن فضيلة، وأكثرها مثوبة، كما أنه سببا في نشر العافية بين الرعية.

* الحث على الجهاد في سبيل الله: فعلى الرغم من كثرة المشاكل الداخلية التي كانت تعرفها البلاد في عهد الشيخ سيدي، وسعيه الجاد في إيجاد حلول لها، إلا أنه على دراية كبيرة بالخطر الخارجي

---

[1]– ولد السعد، محمد المختار، رسائل الشيخ سيدي الكبير إلى الكيانات السياسية والمجموعات القبلية، مصدر سابق، ص 59

[2]– هو أحمد بن سيد أحمد بن عثمان بن لفظيل المشهور ب ول أحمد عيده أحد أكثر أمراء آدرار شهرة

[3]– ولد السعد، محمد المختار، رسائل الشيخ سيدي الكبير إلى الكيانات السياسية والمجموعات القبلية، مصدر سابق، ص 61

[4]– نفس المصدر السابق ص 58

[5]-نفس المرجع السابق، ص 61

الذي كان يتهددها، وهو الوجود الفرنسي على حدودها الجنوبية، لذلك نجده في مشروعه الإصلاحي يؤكد على ضرورة مجاهدة العدو والتصدي له، وهذا ما تؤكده بعض رسائله الموجهة إلى محمد لحبيب أمير اترارزة، يحثه على الثبات أمام الغزاة ومجاهدتهم، وإخلاص النية لله عز وجل في ذلك، حيث خاطبه قائلا:"أخلص نيتك في مجاهدتك للكفرة الذين أنت بصدد مجاهدتهم، ... وأعلم أنا معك بهمتنا ودعاءنا وعنايتنا، ورعايتنا، في جميع ما أنت فيه من نصرة دين الله، وإسفال كلمة الكفر بالله والمعصية"[1].وفي نفس السياق يتنزل مؤتمر "تندوجه" الذي عقده الشيخ سيدي، ودعا له أمراء الكيانات السياسية الموجودة في البلاد في تلك الفترة، ورؤساء وأعيان المجموعات القبلية المختلفة، وذلك بهدف جمعهم على كلمة سواء، وتوحيد البلاد تحت لواء واحد، حتى يتسنى لهم جهاد العدو الفرنسي المتربص بهم.

وانطلاقا مما سبق يمكننا القول أن الشيخ سيدي كان كغيره من فقهاء البلد، قد قدم طرحا سياسيا، تمثل في مشروعه الإصلاحي الجدير بالدراسة، وذلك لمتانة الأسس التي يعتمد عليها، التي كان من أبرزها: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإصلاح ذات البين، وإذاعة قيم العدل والمساواة بين الرعية، دون أن يهمل أمورا أخرى، منها احترام الرعية، والسعي في حل مشاكلها، والدعوة إلى ضرورة أن يعتمد الإمام أو السلطان على بطانة صالحة تعينه على الحق، وتقدم له المساعدة في إدارة شؤون البلاد، معتبرا أن العلماء هم أهل لتلك المهام.

وخلاصة الأمر أن فقهاء البلاد وعلماءها لم يقفوا مكتوفي الأيدي أمام حالة الفوضى التي عانت منها المنطقة في الفترة الزمنية المدروسة، وإنما حاولوا الحد منها، حين قدموا خطابا سياسيا متماسكا، شخصوا من خلاله واقع المنطقة، ووصلوا إلى نتيجة مفادها أن الحل يكمن في وجود سلطان جامع، وسلطة مركزية يمكن من خلالها وضع حد للسيبة، وحالة اللا أمن التي عرفتها البلاد منذ انفراط عقد الدولة المرابطية، كما أنه من الملاحظ أيضا أن الخطاب السياسي الذي قدمه فقهاء البلد خلال القرنين الثامن عشر وتاليه التاسع عشر، يتقاطع في أمور كثيرة، بل وكأنه مخرج من مشكاة واحدة، ذلك أنه قام على أسس ومفاهيم شبيهة بتلك التي قامت عليها الدولة الإسلامية في عصورها الأولى، وتتمثل تلك الأسس والمفاهيم، في أمور من بينها: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإصلاح ذات البين ووأد الفتن، هذا إضافة إلى الجهاد، والتحلي بقيم العدل والمساواة بين الرعية، مع أنه من الجدير بنا التنويه في هذا المقام إلى أن ما قدمه فقهاء البلد من خطاب سياسي، كانوا قد تأثروا فيه بنفس الأطروحات السياسية، التي قدمها علماء وفقهاء ذاع صيتهم في العالم الإسلامي، مثل:

[1]–ولد السعد، محمد المختار، رسائل الشيخ سيدي إلى الكيانات السياسية والمجموعات القبلية، مصدر سابق، ص 78 .79

الماروردي في مؤلفه "الأحكام السلطانية" والطرطوشي في مؤلفه "سراج الملوك" وابن رشد في مؤلفه "البيان والتحصيل" وابن خلدون في "المقدمة" وجلال الدين السيوطي في مؤلفه "تاريخ الخلفاء والملوك"و"رسالته إلى ملوك التكرور" و "آداب الملوك"و"الرسالة السلطانية" ومحمد عبد الكريم لمغيلي في مؤلفاته "تاج الدين فيما يجب للملوك والسلاطين" و أسئلة الأسكيا وأجوبة لمغيلي".

قائمة المصادر والمراجع

1. الناصري، أبو العباس أحمد بن خالد، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، ج2، تحقيق جعفر الناصري، ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1997.

2. ولد السالم حماه الله، صحراء الملثمين وبلاد السودان، في نصوص الجغرافيين والمؤرخين العرب، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت

3 . الشيخ سيد محمد الخليفة، الرسالة الغلاوية، تحقيق الدكتور حماه الله ولد السالم، دار الكتاب العلمية، بيروت لبنان.

4 . البرتلي، الطالب محمد بن أبي بكر الصديق، فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، مركز انجيبونه للمخطوطات وخدمة التراث، تحقبق د. عبد الودود ولد عبد الله، ود، جمال ولد الحسن، 2010

5الشنقيطي، أحمد الأمين، الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، مؤسسة الخانجي، ط1، مصر

6- ابن حامد، المختار، الحياة الثقافية، الدار العربية للكتاب

7- ولد الحسن أحمد، الشعر الشنقيطي في القرن الثالث عشر الهجري، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، ط1، 1995

8- الحمدي أحمد، الريادة العلمية والمشيخة الصوفية في أزاواد، حياة الشيخ سيد المختار الكنتي السياسية والعلمية، دار قوافل للنشر، ط1،2017

9- الفارابي، وأبي القاسم المغربي، وابن سيناء، مجموع في السياسة، تحقيق فؤاد عبد المنعم أحمد، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية

10- الشيخ سيد محمد الخليفة، أوثق عرى الاعتصام للأمراء والوزراء والحكام، تحقيق بادي بن بادي بن باب، شركة المدينة المنورة للطباعة والنشر، جدة، 1421هـ

11ولد شيخنا، سيد أعمر، كيف استجابت الطريقة القادرية لسد الفراغ السلطوي، مقال متوفر على موقع الأخبار أنفو

12- ولد شيخنا سيد أعمر، الفكر السياسي في غرب الصحراء، دراسة في تجربة وأدبيات المدرسة الكنتية،ط 1، مطبعة توب بريس، الرباط، 2012

13- الشيخ سيد محمد الخليفة، الطرائف والتلائد في حياة الشيخين الوالدة والوالد، تحقيق يحي ولد سيد أحمد، ج 2، دار المعرفة
14- ولد السعد، محمدالمختار، رسائل الشيخ سيدي الكبير إلى الكيانات السياسية، والمجموعات القبلية، دار الإسراء للطباعة والنشر، ط1، 2020